بعد شـــوقي (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان يتوجّهُ الظن على شوقي رحمه الله فيزعمُ الزاعمُ أن شوقي هو يحيي شعرَه ، وهو يرفع منه ، وهو يُشيعُ حوله قوةَ الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة ؛ وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم ، بل لأنه أغناهم ، ولا من أنه أقواهم قوةً ، بل لأنه أقواهم حيلة ؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحرُ والساحر ، فترجع العصا وهي عصاً بعد أن انقلبت حية ، ويؤول هذا الشعرُ إلى حقيقته ، وتتسم الحقيقة بسمتها ؛ كأن شوقي كان يعملُ لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس

فقد ذهب الرجلُ إلى ربه ، وخلا مكانُه ، وبطلت كلُّ وسائله ، ونام عن شعره نومةَ الأبدية ، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل ، وأصبح الشاعرُ هو وماله وجاهُه وشعرُه في حكم الكلمة التي يقولها الزمن ، ولم تعدهذه الكلمةُ في حكمه ؛ فهل أثبتَه الزمن أو نفاه ، وهل سلم له أو كابره ، وهل ردَّه في أغمار الشعراء أو جعل الشعراءَ بعده أدلةً من أدلته ؟

* * *

أولُ ما ظهر لي أن الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه وأصدقَ في الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها الكواكبُ وتوقّد منها شيء وتلألأ شيء . فقد دلَّ الزمنُ على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعرٍ كالشعراء ، يقال في وصفه إنه مفتنٌّ مجيدٌ مبدع ؛ ولكنه للذي يقال فيه إنه صوتُ بلاده وصيحةُ قومه

كانت تحدُثُ الحادثةُ ، أو يتخالجُ الناسَ معنىً من الهمّ الذي يعمُّهم ، أو يستطيرهم فرحٌ من أفراح الوطن ، أو يزولُ عظيم من العظماء فيزيد صفحةً في التاريخ ، أو ينشأ كونٌ صغير من أكوان الحضارة في الشرق كبنك مصر ، أو ترتجُّ زلزلة في الحياة العربية أينما ارتجت ، فاذا كلُّ ذلك قد وقع في الدنيا بهيئتين إحداهما في ذهن شوقي ، فيرسلُ قصيدَته الشرودَ السائرةَ داويةً مجلجلة ، فلا تكاد تظهر في مصر حتى تلتقي حولها الأفكارُ في العالم العربي كله ، فتكون شعرا من أسرى الشعر وأحسنه ، ثم تجاوزُه فاذا هي صلةٌ من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها ، ثم تجاوزها فاذا هي عاطفةٌ تجمع القلوبَ على معناها ، ثم تسمو فوق هذا كله فاذا هي من هذا كله زعامةُ مصر على الشعر العربي

واليوم يقع مثلُ ذلك فتتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثمَّ ملونة منتفخةً ماضية على قانون الفقاقيع في الطبيعة من أن لحظةَ وجودها هي لحظةُ فنائها ، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع

ولست أماري في أن بيننا شعراءَ قليلين يجيدون الشعر ولهم فكرٌ وبيان ومذهبٌ وطريقة ، ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقي ، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يعهد إليه وأن يخرج له التقليد فهو ينتظر وسينتظر

وهذا عجيبٌ حتى كأنه سحرٌ من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقريّ الفذّ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفية من الصرفة والعوائق لا هي كلُّها من قوة العبقريّ ولا هي كلها من عجز الآخرين

وأعجبُ من ذا أن (شوقي) كان في العالم العربي كأنه عملٌ تاريخيٌّ متميزٌ من أعمال مصر ، غير أنه مسمىً باسم رجل ؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز — كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلّبة التي تخلّدُ بأسماء الآثار الفنية وتكسبُها العظمةَ في الوجودين ، من محلها ومن نفس الانسان

وأعجبُ من هذا وذاك أني لم أر شعراً عربياً يحسُنُ في وصف الآثار المصرية ما يحسُن في وصفها شعرُ شوقي ، حتى لأسأل نفسي : هل تختار بعضُ الأشياء العظيمة وصفَها ومفسر

(١) لما توفي شوقي كتبنا لشيخ مجلاتنا (القنطف) فصلا طريلا عنه وعن شعره ومنزلة شعره فلم نعرض لشيء من ذلك هنا

عظمتها ، كما تختار المرأةُ الجميلةُ عاشقها ومُستجلى حسنها ؟

* * *

وما بانَ شوقى على غيره إلا بأنه رجل أفرغَ في رأسه الذهنُ الشعريُّ الكبير ، فكان في رأسه مَصْنعٌ عمّاله الأعصاب ، ومادته المعاني ، ومهندسه الالهام ؛ والدنيا تُرسل اليه وتأخذ منه ؛ وعلامةُ ذلك من كل شاعر عظيم أن تضعَ دنياه على اسمه شهادتها له . ولهذا ما يكون بعضُ الشعراء كأن اسمهُ في وزن اسم مملكة . فاذا قلتَ شكسبير وانجلترا ، فهما في العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبي والعالم العربي ، وكذلك شوقى ومصر

قالوا كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يُخَشْشِبُ (أي يُرسل شعره كما يجيء فلا يتنوقُ فيه ولا ينقحه) ؛ وكان خَشْشبُ جرير خيرًا من تنقيح الفرزدق . ولم يتنبه أحد إلى السر في ذلك ؛ وما هو إلا السر الذي كان في شوقى بعينه ، سرُّ الامتلاء الروحيّ قد أُمِدَّ بالطبع ، وأُعين بالذوق ، وأوتي القوةَ على أن يتحول بآثاره في الكلام ؛ فكل ما كان منه فهو منه ، يجيء دائمًا قريبًا بعضُه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به

وقد كان عمرُ بن ذَرّ الواعظُ البليغ [١] إذا تكلم في مجلسه نشر حوله جوًا من روحه فيجعل كلَّ ما حوله يتموج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفَ الهواء بالبحر يقوم به ويقعد ، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدري أنه بذلك يعرض الغلطةَ على ردّها وصوابها ، فقال بعضُ من جالسه وجالسهم : ما سمعتُ عمر بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخَ في الصُّور ، وما سمعت أحدًا يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين ...

فالفرق روحاني طبيعيّ كما ترى ، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين في البحر . ففي ناحية يلتجُّ الماء ويثب ويتضرّب ويقصف قصفَ الرعد ، وفي الأخرى يترجرج ويتزحف ويقشعرُّ ويهمس كوسواس الحلي

والشأن كل الشأن للكمية الوجدانية في النفس الشاعرة أو الممتازة ؛ فهي التي تميّز لهذه النفس عملها على وجهٍ ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدرٍ ما ، وتقيمها على دأبها إلى زمنٍ ما ، وتختصها بخصائصها لغرضٍ ما . وإذا أنت حققتَ لم تجد الفروقَ بين النوابغ بعضهم من بعض ، إلا فروقًا في هذه الكمية ذاتها مقدارًا من مقدار . ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظمَ من أكبر الشعراء ، فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ في العلم ثم يكون العلمُ كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه . ولئن عجز النقدُ العلميُّ أن ينال من الشاعر العبقريّ لقديمًا عجز في كل أمة

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقى من هو أوسع منه اطلاعًا على آداب الأمم ، وأبصرُ بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسدًا شانئًا قد تَقَبَّبَ في قلبه الحقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو في اتساع الكلام وطغيان العبارة أخو المحب العاشق ، فكلاهما يدور الدمُ في كبده معانيَ ووساوس ، وكلاهما يجري كلامه على أصلٍ مما في سريرته فلا تجد أحدهما إلا عاليًا عاليًا عن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلاً نازلاً بمن يبغض . وكان هذا الناقد شاعرًا فانضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت وتراخي الزمن ؛ وهذه كلها مفرقعات نفسية .... بعضها أشدُّ من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميلينيت ؛ ولكن شوقى كان في مرتقى لم يبلغه الناقد فانقلب جهدُ هذا عجزًا وأصبح البارود والتراب في يده بمعنى واحد ....

* * *

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد ، أني رأيته يقرر للناس صوابَ الحقيقة بزعمه ، فاذا هو يقرر غلطَه وجهله وتعسفه . وهو في كل ما يكتب عن شوقى يكون كالذي يرى الماءَ العذبَ وعمله في إنبات الروض وتَوْشيته وتلوينه ، فيذهب يبيّنه للناس بأنه ليس هو البنزين .... الذي يحرك السيارات والطيارات

تناول شوقى بعد موته فجرده من الشخصية أي من حاسة الشعر ومن إدراك السر الذي لا يُخلَق الشاعرُ الحقُّ إلا لادراكه والكشف عن حقائقه ؛ وكان فيما استدل به على ذلك

(١) هو عمر بن ذر الهمذاني الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين

أن شوقى لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومى فى قوله:

تجدُ الوحوشُ به كفايتَها والطيرُ فيه عتيدةُ الطُّعْمِ

فظباؤه تُضحى مُنتَطِحة وحمامه يضحى بمختصِمِ

وزعم أن ابن الرومى قد ولد بحاسة لم يولد بها شوقى ، ولهذه الحاسة أمعج فى الطبيعة فأدرك سر الربيع وأنه غليانُ الحياة فى الأحياء ، فالظباءُ تنتطح من الأشر الخ الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب . . . . لا ناطحة ظباء [١]

أما شوقى الشاعر الضعيف العاجز الذى لم يولد بمثل تلك الحاسة فلو أنه شهد ألفَ ربيع لما أحسّ هذا الاحساس ولا استطاع أن يجىء بمثل هذا القول المعجز . وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ فى جهل فى جهل ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ؛ فابنُ الرومى فى هذا المعنى لصٌّ لا أكثر ولا أقل ، فلم يحسّ شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع

قال الجاحظ : يقال فى الخصب (أى الربيع) نفشت العنز لأختها ؛ وخلّفتُ أرضاً تظالَمُ مِعزاها (أى تتظالم) . قال لأنها تنفش شعرها وتنصِبُ رَوْقيها فى أحد شِقّيها فتنطح أختها وإنما ذاك من الأشر . (أى حين سمنت وأخصبت وأعجبتها نفسها)

فأنت ترى أن ابن الرومى لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التى قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى . . . . فاستكره الحمام على أن يختصم فى زمن بعينه وهو يختصم فى كل يوم . وإنما شرط الزيادة فى السرقة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترع

ولعمرى لو كان للطبيعة مائة صورة فى الخيال الشعرى ، ثم قدّم شوقى للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا . إلا الصورة التى لم يقدّمها . . . .

* * *

وكان شعر شوقى فى جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء ، يردُّهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب فى اللفظ والتركيب ؛ فكثر الاختلالُ فى الناشئين من بعده وجاءوا بالكلام المخلَّط الذى تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفاً سهلاً ولكن سهولته أقبحُ فى الذوق من جَفْوة الأعراب على كلامهم الوحشىّ المتروك

والآفة أن أصحابَ هذا المذهب يفرضون مذهبَهم فرضاً على الشعر العربى كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن . وليس فى أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربى فكل منهم عابد الحياة ، مندمج فى وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ، ويجارى اللانهاية ، ويَفْنَى فى اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنّى على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار فكل منهم مجنون لُغَوى . . . .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجِيَف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعدُّ كذلك فى الوجود الأعظم ، بل هى فيه عمل تحليلىٌّ علمىٌّ دقيق . لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هى فسادٌ ونتن وقَذَر فى اعتبار وجودنا الشخصى ، ووجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !

* * *

وكان حاسدو شوقى يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدُّمهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم .... وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةَ ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب فى خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك . . . . وهيهات

(طنطا)

إلى (حائر) سنجه بالسودان . كان « الفنان الحائر » غير من ظننت ؛ وحيرته من الفن لا من الزندقة بإحضرة مؤلف المقالة الابليسية . . . وقد اذكرنى كتابك رسائلك الأولى فافتقدتها فإذا هى بين عشرين رسالة وردت من مختلف الأقطار أيام مرضى بإسكندرية وكنت جعلتها إضبارة (رزم) لأذكرها فنسيتها . فمعذرة إليك وإليهم وإليهن ، وأنا كثيراً ما أعتمد على كرم الكاتب أو الكاتبة فى العفو عن تقصيرى . أما رسائلك التى أسميها المقالة الابليسية فسأكتب عنها فى يوم كما يشاء الله قريب أو بعيد .

الرافعى

(١) لا يحضرنى كلام الكاتب بنصه ولكن هذا يمس معناه وكله تهويل